صورة المدينة في مقامات ابن الورديّ

الدّكتورة منى العلي[(1)] *

الملخص

تسعى هذه الدّراسة إلى بيان صورة المدينة في النّصّ التّراثيّ العربيّ القديم في حقبة زمنيّة شهدت كثيراً من الحروب، والنّزاعات، والفتوحات أيضاً، فما كان من أدبائها إلّا أن يمّموا وجوههم شطر الكتابة الأدبيّة لتصوير الأحداث المهمّة الّتي أصابت المجتمع المملوكيّ، ومن هؤلاء" ابن الورديّ" الّذي اشتهر بمقاماته الخمس. وقد خرجت المقامة عنده عن طابعها العام المشهور بالكديّة والتّسوّل إلى تصوير الأحداث السّياسيّة والاجتماعيّة، وإبداء آرائه الخاصّة فيها بأسلوب يجذب المتلقّي والقارئ على السّواء

وعليه، جاءت الدّراسة في منحيَين ؛ تنظيريّ بسيط يعرض معنى المقامة، وأسباب ازدهارها في عصر "ابن الورديّ"، وآخر تطبيقيّ يبيّن كيف تبلورت صورة المدينة في مقامتي ابن الورديّ (الأنطاكيّة، والمنبجيّة)، والوسائل الّتي استعان بها الكاتب في سبيل تحقيق غايته.

الكلمات المفتاحيّة: المقامة، المدينة، صورة، ابن الورديّ.

[(1)] * دكتورة . قسم اللغة العربيّة . كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة . بجامعة الفرات . دير الزّور .

المقدّمة:

تمثّل المقامة في العصر المملوكيّ، ولا سيّما في القرنين السّادس والسّابع الهجريّين سجلّاً حافلاً يؤرّخ فيه لبعض الحوادث الّتي تعتري المجتمع، كما أنّها كانت مستقلّة بحدثٍ معيّن؛ إذ عانت البلاد في تلك الحقبة من الفقر الشّديد، وسنوات الجفاف الّتي أدّت إلى غلاء الأسعار، ناهيك عن الأوبئة الفتّاكة، والكوارث الطّبيعيّة المتوالية، إضافة إلى الغزو الصّليبيّ الّذي ترك آثاراً واضحة في المجتمع العربيّ عامّة، والشّاميّ خاصّة.

أمام ذلك كلّه ما كان من أدباء تلك الحقبة إلّا أن سخّروا يراعهم للتّعبير عن مشاعرهم تجاه تلك الأحداث، ومنهم (ابن الورديّ) الّذي أعطى للمكان/ المدينة أهمّية بالغة في مقاماته؛ فللمكان ارتباط وثيق بهذا العمل الأدبيّ، وهذا ما أكّده النّقّاد القدامى والمحدثون الّذين دعوا إلى نفي الأصالة عن العمل الأدبيّ في حال افتقاده إلى المكان؛ فافتقاده للمكان معناه افتقاده لخصوصيّته.

وممّا سبق جاءت فكرة بحثنا الموسوم بـ" صورة المدينة في مقامات ابن الورديّ "؛ إذ يسعى البحث إلى بيان صورة المدينة في المقامتين الموسومتين بـ" المقامة المنبجيّة، والمقامة الأنطاكيّة" في محاولة للإجابة عن التّساؤلات من قبيل:

-ما المقامة، وكيف تجلّت صورة المدينة في مقامات (ابن الورديّ)؟.

-ما الوسائل والمصادر الّتي لجأ إليها (ابن الورديّ) في وصفه للمدينة، ومدحها، وذمّها؟.

-هل استطاع النّصّ المقاميّ استيعاب أفكار الكاتب، وتأدية الغرض المراد منه؟.

وتكمن أهمّية البحث في أنّه يوضّح تطوّر فنّ المقامة في العصر المملوكيّ تطوّراً ملحوظاً؛ إذ لامَسَت مقامات هذا العصر مختلف مظاهر الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة، وأضحت مصدراً مهمّاً من مصادر النّثر فيه، إضافة إلى أنّه يكشف عن الأبعاد الثّقافيّة، والحضاريّة، والسّياسيّة للمدينة في المجتمع العربيّ في ذلك العصر.

أمّا المنهج الّذي اعتمده البحث فهو المنهج الوصفيّ الّذي يقوم بوصف الظّاهرة وتفسيرها، مع الاستعانة ببعض آليّات المنهج الأسلوبيّ للكشف عن جماليّات التّراكيب والصّور لدى (ابن الورديّ) في أثناء تصويره للمدينة، مستفيدين من دراسات عدّة، نذكر

منها على سبيل المثال دراسة بعنوان" دلالات المدينة في شعر مدينة سعدة خلخال" للدّكتورة منى بشلم، وأخرى موسومة بـ" دلالة المدينة في الخطاب الشّعريّ العربيّ المعاصر دراسة في إشكاليّة التّلقّي الجماليّ للمكان" لقادة عقاق.

أوّلاً: المقامة في عصر ابن الورديّ[1]:

إنّ المطّلع على معاجم اللّغة الحديثة والقديمة يجد أنّ المعنى اللّغويّ للمقامة لا يكاد يخرج عن كونها اسماً للمكان، أو المجلس والجماعة من النّاس؛ فممّا جاء في المعاجم القديمة ما ذكره (أبو منصور الأزهريّ) في "تهذيب اللّغة"؛ إذ ذهب إلى أنّ " مقامات النّاس مجالسهم، ويُقال للجماعة يجتمعون في المجالس مقامة،(...)، ويُقال: قمت بالمكان مقاماً وإقامة"[2]

وممّا جاء في المعاجم الحديثة ما ذكره(سعيد الشّرتونيّ) في " أقرب الموارد في فصحى العرب والشّوارد" من أنّ المقامة" المجلس والجماعة من النّاس، جمع مقامات، وتطلق المقامات على خطب من منثور الكلام ومنظومه،(...)، والمقامة بالضّمّ الإقامة".[3]

وإذا ما جئنا لنسأل عن المعنى الاصطلاحيّ للمقامة فإنّنا نجد أنّ هذا المصطلح قد أخذ صوراً متعدّدة من الدّلالات؛ ففي العصر الجاهليّ كانت– أي المقامة– تعني الاجتماع والجلوس في المقامات والأندية لتبادل أطراف الحديث، لتأخذ الدّلالة الوعظيّة

---

[1] هو زين الدّين، أبو حفص عمر بن مظفّر بن عمر بن محمّد بن أبي الفوارس بن الورديّ المعريّ الشّافعيّ، وُلد سنة إحدى وتسعين وستمئة من الهجرة(691هـ) بمعرّة النّعمان، ومنها جاءت نسبة المعريّ إليه.

وقد برع في النّظم والنّثر، كما برع في النّحو والفقه وغيرهما، ويظهر من رسائله أنّه اشتغل بالتّدريس، وخرّج طلّاباً عدّة، وقد أجازهم.

توفّي (ابن الورديّ) في السّابع عشر من ذي الحجّة سنة تسع وأربعين وسبعمئة من الهجرة النّبويّة بعد إصابته بالطّاعون العام في حلب، وكان عمره يناهز السّتين عاماً.

تُنظر ترجمته في: **العسقلانيّ** شهاب الدّين أحمد بن حجر، 1966م– **الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة**. تحقيق: محمّد سيّد جاد الحقّ، دار الكتب الحديث، القاهرة، 195/3. **الكتبيّ** محمّد بن شاكر،1973م– **فوات الوفيّات والذّيل عليها**. تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 157/2. **السّبكيّ** تاج الدّين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي،1990م – **طبقات الشّافعيّة الكبرى**. تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، 373/10. الزركليّ خير الدّين، 2002م– الأعلام. الطّبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، 67/5.

[2] – **الأزهريّ** أبو منصور محمّد بن أحمد، 1994م– **تهذيب اللّغة**. تحقيق: عبد الحليم النّجّار ومحمّد علي النّجّار، القاهرة، مادة(قوم).

[3] – **الشرتونيّ** سعيد، 1993م– **أقرب الموارد في فصحى العرب والشّوارد**. مطبعة مرسلي، بيروت، الطّبعة الأولى ،2/ مادة(قوم).

في مجالس الملوك والأمراء في العصر الأمويّ، وفي النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجريّ_ وهو ما يسمّى بالعصر الذّهبيّ_ أخذت المقامة صورتها الفنّيّة النّاضجة؛ إذ كانت وليدة تيّارين اثنين؛ تيّار الحرمان والتّسوّل، وتيّار الصّنعة الأدبيّة والتّنميق.[1]*

وفي العصر المملوكيّ طرق كتّاب المقامات موضوعات جديدة، وطرأ التّغيير على نظامها الشّكليّ؛ إذ إنّ القليل منهم من حافظ على صورة المقامة المعروفة عند روّاد المقامة؛ فحلّ الكاتب نفسه محلّ البطل والرّاويّ في بعض الأحيان، وجاءت بعض المقامات على صورة المقالة، واستهلّت بالبسملة، أو بالخطبة، ثمّ الموضوع.

ويمكننا القول: إنّ المقامة قد ازدهرت في العصر المملوكيّ، واهتمّ بها الأدباء؛ إذ وجدوا فيها المساحة الكافية، والحرّيّة المطلقة لإبداء آرائهم النّقديّة حول الأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة السّائدة في ذلك العصر، إضافة إلى قدرة النّصّ النّثريّ على استيعاب ثقافة الأديب المتنوّعة في مختلف العلوم المنتشرة آنذاك.

ثانياً–المدينة ظاهرة مكانيّة في التّراثين العربيّ والغربيّ:

إنّ فكرة المدينة بوصفها ظاهرة مكانيّة، وبعداً فلسفيّاً فكريّاً قد يعتقد بعض الدّارسين أنّها حديثة التّصوّر إبداعيّاً وفنّيّاً، لكن الأمر يختلف لمن يبحث في أمّات الكتب الّتي خاضت في الفكر الإنسانيّ العربيّ منه والغربيّ؛ فإذا عدنا بدايةً إلى الفكر الغربيّ القديم ممثّلاً بـ(أفلاطون) الّذي يرى أنّ المدينة الحقّة من الضّروريّ لها أن تنتظم بنظام يجب ألّا يخرج عن نظام النّفس حتّى تتحقّق حياة أفضل، وتسود العدالة المنشودة، وكأنّنا به يحاول أن يوفّق بين نظام النّفس كما خُلقت، وتنظيم المدينة كما يجب أن

---

[1] – يُنظر: **المرزوقيّ** رياض،1977م– **ملاحظات في تطوّر المقامة العربيّة.** مجلّة الموقف الادبيّ، العدد 71آذار، ص99–107.

*– تعتمد المقلمة على أركان أساسيّة، وهي: (الرّاوية؛ أي الشّخص الّذي يحكي المقامة، ويصوّر الأحداث الّتي وقعت.المكديّ؛ وهو البطل الّذي تدور حوله المقامة. الموضوع؛ فالمقامات موضوعات مختلفة منها الأدبيّ، والعلميّ، والفكاهيّ، وغيرها)

يُنظر: **قياس** ليندة،2009م– **لسانيّات النّصّ النّظريّة والتّطبيق مقامات الهمذانيّ أنموذجاً.** مكتبة الآداب،الطّبعة الأولى، ص93.

يكون حتّى لا يخرج بها عن الفطرة، هذا كلّه ضمن نظام تراتبيّ ثلاثيّ استثنى منه الشّعراء والفنّانين، وأبعدهم لكونهم –حسب اعتقاده– مصدر فساد، ومنبع رذيلة، وتسميم للعقول.[1]

والسّؤال هنا: هل كانت المدينة الفاضلة الّتي ينشدها (أفلاطون) واقعاً أم خيالاً؟.

يمكننا أن نقول: إنّ المدينة عند (أفلاطون) بعيدة البعد كلّه عن الواقع فهي "وليدة الخيال الفنّيّ، والفكر الفلسفيّ عند خالقها فحسب."[2]؛ فالمدينة الواقعيّة كانت وستظلّ على مرّ الأزمان المسرح الأمثل لكلّ قول، أو ثورة، أو تجدّد وتغيير؛ إذ تنتقل صورة المدينة "عبر الأزمان والأجيال مع بعض التّغييرات اللّازمة للتّكيّف مع مستجدّات الحياة، إضافة إلى أنّها ظاهرة مكانيّة خاضعة للتّطوّر الزّمنيّ، وتختلف عبر هذه الصّيرورة، والحركيّة، والتّغيير النّسبيّ نظرة النّاس إليها، ومواقفهم منها حبّاً أو بغضاً، اتّصالاً أو انفصالاً، تقبّلاً أو نفوراً."[3]

هذا عن المدينة بوصفها بعداً فلسفيّاً وفكريّاً، والسّؤال: ماذا عن كونها ظاهرة أدبيّة؛ أي كيف حضرت المدينة في التّراث الأدبيّ، وما الجذور الّتي أنتجتها، والظّروف الّتي أوجدتها؟.

نبدأ أوّلاً بإرهاصات فكرة المدينة في الشّعر الجاهليّ؛ إذ لا نلمح حضوراً لها بصورة جليّة فيه، وإنّما يمكننا الإلماع إليها بوساطة المقدّمة الطّلليّة الّتي هي " تعبير صميميّ عن لحظة الوعي بالعري الحضاريّ، أو لنقل لحظة الوعي بغريزة الموت الّتي تدبّ في أوصال الحياة بصمت؛ ففيها تتجلّى معاينة التّخريب الّذي حلّ بالكون والإنسان، فأباد عمرانه، وأدرس ما شيّده، وهنا

---

[1]– ينظر: **الفارابيّ** أبو نصر– **كتاب الجمع بين الحكيمين.** تقديم وتعليق: ألبير نصري نادر، الطّبعة الثّالثة، دار المشرق، بيروت، ص17.

[2]– **عقاق** قادة، 2001م– **دلالة المدينة في الخطاب الشّعريّ العربيّ المعاصر دراسة في إشكاليّة التّلقّي الجماليّ للمكان.** منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص27.

[3]– المرجع السّابق، ص23.

يتحوّل الوقوف على الأطلال إلى وقوف غريزة الحياة التي يمثّلها الشّاعر في وجه غريزة الموت الّتي يمثّلها الجدب، والقحط الطّبيعيّ."[1]

وعليه، غابت المدينة في الشّعر الجاهليّ لنجدها حاضرة في عصر صدر الإسلام في الخطاب القرآنيّ، ومصدر الحديث؛ إذ وردت لفظة المدينة في القرآن الكريم مرادفة للفظة القرية[2]، فهي مركز السّلطة ومستقرّ الحكّام، كما أنّها مركز للتّجارة والبيع.

والأمر أيضاً فيما يخصّ مصدر الحديث؛ إذ تأتي الأحاديث الشّريفة متّفقة وروح التّنزيل في النّظر إلى القرية(المدينة) والموقف المحذّر منها؛ فكثير من الأحاديث المرويّة عن الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم فيما يختصّ بالمدينة، تحذّر فيها بوضوح من فساد المدن، وما يتولّد عنها من المعاصي.[3]

وإذا ما جئنا لنبحث عن المدينة في الأدب الأمويّ وجدنا بواكير ظهورها على المستوى السّياسيّ عند الخوارج –الّذين فضّلوا الإقامة والعيش والاستقرار في البوادي، ورفضوا المدن؛ لأنّها في نظرهم لا توافق طبائعهم، ولا تنسجم مع نفوسهم الزّاهدة في ملذّات الدّنيا المتوافرة في المدينة ، الرّافضة لتسلّط الحكّام–، والحنين إلى الموطن في شعر العذريّين.[4]

والأمر نفسه في العصرين العبّاسيّ والأندلسيّ؛ إذ ازدهرت المدينة العربيّة في هذين العصرين، وتجلّت في أشعار الشّعراء؛ فمن العبّاسيّ يبرز (المتنبّي) منتصراً للبداوة مفضّلاً لها على الحضر الّذي يرتبط بالتّصنّع والتّكلّف، غير أنّه لم ينطوِ على نفسه بل وقع في صدام عنيف مع المدينة كلّفه شعوراً عميقاً بالغربة؛ وهي غربة فكريّة أكثر منها نفسيّة.

---

(1)– **عقاق** قادة، 2001م– **دلالة المدينة في الخطاب الشّعريّ العربيّ المعاصر دراسة في إشكاليّة التّلقّي الجماليّ للمكان**. ص31.

(2)– يُنظر: **النّحاس** أبو جعفر أحمد بن محمد، 1988م– **معاني القرآن**. تحقيق: محمد علي الصّابونيّ، الطّبعة الأولى، جامعة أمّ القرى، مكّة المكرّمة، ، 130/5.

(3)– يُنظر: **الخالدي** طريف، 1979م– **دراسات في تاريخ الفكر العربيّ الإسلاميّ**. دار الطّليعة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ص83.

(4)– يُنظر: **عقاق** قادة، 2001م– **دلالة المدينة في الخطاب الشّعريّ العربيّ المعاصر دراسة في إشكاليّة التّلقّي الجماليّ للمكان**. ص10.

القط عبد القادر، 1979م– **في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ**. دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، ص375.

وحين ساءت الأحوال في الأندلس، وسارت إلى الحروب، وغزاها الصّليبيّون تحوّلت المدينة إلى موضوع رثاء، فصارت الفردوس المفقود، وانقلب حبّها اشتياقاً وحنيناً. [1]

وتأسيساً على ما سبق، نجد أنّ الإرهاصات الأولى لفكرة المدينة عند العرب تمثّلت بشعور الغربة والحنين للوطن عند كلّ من العذريّين والأندلسيّين، بينما تجلّت فكرة المدينة والنّفور منها مع شعور الغربة الفكريّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة عند شعراء الخوارج، والعصر العبّاسيّ.

ثالثاً– صورة المدينة في المقامة الأنطاكيّة:

كانت صفحة الحروب الصّليبيّة هي الصّفحة المميّزة للحياة السّياسيّة في بلاد الشّام في القرنين السّادس والسّابع الهجريّين؛ فقد بسط الفرنجة نفوذهم على معظم المدن الشّاميّة الكبرى باستثناء دمشق وحلب، كما ظهر الجيش الصّليبيّ أمام أسوار أنطاكية سنة إحدى وتسعين وأربعمئة للهجرة، وظلّ محاصراً لها حتّى استولى عليها مؤسّساً بها إمارة، ثمّ بسط نفوذه على الرّها، وأسّس بها إمارة ثانية، ولم يتوقّف الأمر عند ذلك، بل بدأ الصّليبيّون يوجّهون أنظارهم نحو بيت المقدس.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الصّليبيّن كانوا يعيثون فساداً في كلّ مدينة يسيطرون عليها، ويحتلّونها[2]، وقد عالج الأدباء – عامّة– في العصر المملوكيّ في كتاباتهم ظاهرة المكان، ونقصد بالمكان هنا المدينة؛ إذ تعاظم إحساسهم زمن الحروب الصّليبيّة بالمكان، فطفقوا يعبّرون بطريقة مباشرة وغير مباشرة عن تشبّثهم بأرضهم، وتعلّقهم بتراثهم وعاداتهم في ظرف قاس سعى فيه الأعداء إلى انتزاعها من أيديهم، وتغيير وجهها الإسلاميّ، و(ابن الورديّ) كان واحداً من هؤلاء الأدباء الّذين سخّروا يراعهم لوصف حال بعض المدن الإسلاميّة، ومنها أنطاكية في ظلّ الاختلاط بالرّوم آنذاك، والوقوف على جمال تلك المدينة ممزوجاً ذلك كلّه بحسّ سياسيّ نقديّ فعّال يرمي إلى تحذير العرب المسلمين من الخطر الأجنبيّ؛ إذ إنّ موضوع المقامة هو الرّحلة إلى أنطاكية الّتي يراها الرّاوي مدينة فائقة الجمال، فيسعد لمنظرها، ثمّ يصل إلى والي المدينة الّذي يعيش حالة من السّأم والحزن، ممّا يلفت

---

[1]– **بشلم** منى، 2021م– **دلالات المدينة في شعر منيرة سعدة خلخال**. مجلّة دراسات معاصرة، مخبر الدّراسات النّقديّة والأدبيّة المعاصرة، المركز الجامعيّ، الجزائر، المجلّد 5، العدد 1، ص287.

[2] – يُنظر: **حمزة بن أسد بن علي**، 1983م– **تاريخ دمشق**. تحقيق: سهيل زكّار، دمشق، د، ط ، دار حيّان، ص135–136.

انتباه الرّاوي، فيسأله عن السّبب، فيجيبه أنّ حزنه نابع من ازدياد العنصر الأجنبيّ/الرّوم على حساب العرب ومصالحهم، وممّا زاد من حدّة توتّره وغضبه هو عدم تنبّه العرب، وشعورهم بالخطر المحدّق بهم، وعلى قرب منهم.

وممّا سبق نستطيع أن نقف على صورتين لمدينة أنطاكية في المقامة؛ الأولى منهما صورة المدح؛ إذ يقول في مدحها على لسان الرّاوي:" كثيراً ما كنت أسمع بين البريّة الثّناء على نزه أنطاكيّة، وأنّها قطع لمن لم يصلها، وخروج لمن لم يدخلها، ولفرط ثنائهم عليها تجهّزت للمسير إليها، فلمّا دخلتها وشاهدتها، وتأمّلتها أكبرت طُولها وطَولها، وعجبت لحصانتها، والعاصي دائر حولها، ودُهشت لاستخراج الظّاهر من باطنها، وانتعشت لاستدراج الكافر عن مواطنها، حتّى قسا قلب القسيان على برج الحرس، وما بكت عين بولص على ما اندرس، وأشهر في التّاريخ حديثها، وبدّل بالتّوحيد تثليثها، وفتح باب جنانها لمن أصبح من سكّانها، فحمدت الله الّذي جعلها دار إسلام، وشكرته على هذا الفتح الّذي خصّ أحزاب المؤمنين بالأنعام."[1]

يتجلّى في هذا المقطع ذكر لمواصفات أنطاكية؛ فنهر العاصي يحيط بها كما يحيط السّوار بالمعصم، ولهذه الصّورة دلالتها؛ إذ إنّ هذا النّهر قد أهدى لهذه المدينة جماليّة ورونقاً، إضافة إلى حصانة منيعة، وكذا شأن المعصم الّذي يُزيّن بالذّهب والحلي.

ونجد فرحة الرّاوي عارمة لفتح المسلمين هذه الدّيار؛ فقد أصبحت دار إسلام وسلام بعد أن تجرّعت كؤوس المرّ على يد الصّليبيّن الّذين عاثوا فيها فساداً، وجعلوا التّثليث الدّين الرّسميّ بدلاً من التّوحيد، وقد وظّف (ابن الورديّ) الألفاظ بدقّة متناهية للتّعبير عن ذلك؛ ففي قوله:(لاستدراج الكافر عن مواطنها) لم يقل إنّ المسلمين قد استدركوا الأمر، وإنّما أتى بالمصدر من الفعل استدرج؛ أي حاولوا التّخلّص من هؤلاء الغزاة المعتدين، ولكن على مراحل ليشير بذلك إلى معاناة المسلمين الطّويلة، والحرب النّفسيّة الّتي أقضت مضاجعهم، وسلبتهم راحتهم حتّى تحقّق النّصر بالفتح الّذي خصّ المؤمنين دون غيرهم، وهنا نلمح في قوله (المؤمنين) ولم يقل(المسلمين)؛ لأنّ المسلمين كثيرون، ولكنّ المؤمنين قليلون، وهذا يحيلنا على قوله تعالى : (قالت الأعراب

[1]– **ابن الورديّ** زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفّر ، 2006م– **ديوان ابن الورديّ**. تحقيق: عبد الحميد هنداويّ، الطّبعة الأولى، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ص24–25.

آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم)؛[1] ففي تفسير (ابن كثير) لهذه الآية الكريمة جاء أنّ الإيمان أخصّ من الإسلام.[2] ولعلّ (ابن الورديّ) هنا أراد أن يشير إلى أن الحرب التّحريريّة من الصّليبين وحّدت النّاس في مختلف المشارب على فكرة هزم العدوّ وطرده من البلاد العربيّة، وعليه فإنّ الإيمان بالنّصر على من طغى وقتل واحتلّ وعصى ما نهى الله عنه كان إيماناً حتميّاً وواقعيّاً، ولم يكن إيماناً دينيّاً فحسب، و(ابن الورديّ) هنا يحثّ النّاس على التزام قيم الإسلام للحفاظ على النّصر الّذي تحقّق، و ليكتمل النّصر بالإيمان، ويمحو كل ما حدث من قبح .

أمّا الصّورة الثّانية فقد تجلّت في ذمّ العيش في أنطاكية، وهذا ما جسّده قول الوالي وقد كان شابّاً ذا سكينة ووقار، حسن المظهر، غير أنّه كان منغّص العيش في هذه المدينة والسّبب كما قال:" لقد جمعت هذه المدينة بين عرب وروم، وأنا معهم في الحيّ القيّوم، لا أطيق فيهم قراراً، لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً، ومن يطيق الجمع بين الضّدّين أم من يقدر على موالاة ندّين، وكيف يظفر ساكن أنطاكية بنيل إرب، وقد حنيت أضلع الجمع على بغض العرب، كم أجدّ ويلعبون، وهم من بعد غلبهم سيغلبون.

مـن كـلّ فـظٍّ أعـجـمـيّ غـثّ الـكـلام مُـذمّـم

إن نـبّـهـتـه مـروءة فـتـقـول عـجـمـتـه نم"[3]

وعليه، فالسّبب وراء عدم راحة هذا الوالي هو أنّ هذه المدينة كانت خليطاً من العرب والرّوم؛ إذ إنّ البنية الاجتماعيّة للمدن الشّاميّة الكبرى قد ضمّت عناصر وأجناساً متنوّعة، ولعلّ أبرز تلك الأجناس هم الأتراك، والعرب، والفرس، والرّوم[4]، وهذا ما أرّق الوالي، وأطبق على صدره، ولنا أن نلمح التّناصّ الدّينيّ الّذي مثّل بؤرة فنّيّة مركزيّة كثيرة الإيحاءات؛ فالخطاب الدّينيّ في العصر

---

[1] – سورة الحجرات، الآية 14.

[2] – **ابن كثير** إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ الدّمشقيّ، 1999م– **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: سامي بن محمّد السّلامة، الطّبعة الثّانية، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، السّعوديّة، ص517.

[3] – **ابن الورديّ** زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفّر ، 2006م– **ديوان ابن الورديّ**. ص35.

[4] يُنظر: **رمضان** أحمد،1977م– **المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشّام في عصر الحروب الصّليبيّة**. الجهاز المركزيّ للكتب الجامعيّة، القاهرة، د، ط، ص49–64.

المملوكيّ قد شكّل مرجعيّة ثقافيّة، واجتماعيّة، وفكريّة لـ(ابن الورديّ)، ومن أمثلة ذلك قوله:(لا أطيق فيهم قراراً، لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً)؛ فـ(ابن الورديّ) هنا يريد يشير إلى أنّ هذا الوالي لم يهنأ بعيش في هذه المدينة، كما أنّ نفسه قد ضاقت ذرعاً، ولم يعد يرغب في العيش في ظلّ هذا الجوّ الكدر والمشوب، وهو في تناصّه مع الآية القرآنيّة يشير أيضاً إلى مدى كره الوالي لهذه الفئة من الرّعيّة، حتّى إنّه لا يتقبّل وجوههم؛ فشبّههم بأهل الكهف الّذين لبثوا مئات السّنين وهم نائمون، فطالت شعورهم وأظفارهم ولحاهم، فأصبح منظرهم غريباً، وهذا حال هؤلاء العجم في أنطاكية؛ فهم غرباء قد لبثوا السّنوات الطّوال فيها، ومع ذلك لا يرتاح لهم أحد، وكلّ من يراهم ينفر منهم.

ويختتم قوله بالإشارة إلى مركز الخوف والهمّ لديه؛ فهؤلاء الرّوم من بعد غلبهم سيغلبون كما جاء في القرآن الكريم في سورة الرّوم (غلبت الرّوم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)[1]؛ أي ستقوى شوكتهم، وسيصبح العرب والإسلام تالياً لهم، وهذا ما لم ينتبه إليه العرب، ولم يتحسّسوا أثره، وقد تجسّد ذلك بالاستفهام الّذي خرج عن معناه الحقيقيّ إلى معنى التّعجّب؛ إذ تعجّب على لسان الوالي بطريقة غير مباشرة بأنّه كيف يمكن أن يناموا ملء عيونهم، ويعيشوا قريريّ العين، والرّوم يشاركونهم أرضهم، ولقمة عيشهم؟!

وممّا سبق نلاحظ أنّ لغة (ابن الورديّ) تنمّ على نقدٍ لاذعٍ، وقاس لكلّ من الرّوم والعرب؛ فلم ينج أحدٌ منهما من نقده؛ إذ نجده قد صوّر العرب بالغفلة، أمّا هؤلاء العجم فقد كان لهم النّصيب الأكبر من الذّمّ على المستويين الظّاهر والباطن للغته؛ إذ صوّرهم بالعجمة، والفظاظة، وعدم المروءة، فهم نائمون بعيدون عن كلّ خير، يقظون لكلّ شرّ.

رابعاً: صورة المدينة في المقامة المنبجيّة:

لم يقف دور (ابن الورديّ) في مقاماته عند تصوير الأبعاد السّياسيّة والاجتماعيّة للمدينة كما وجدنا في المقامة الأنطاكيّة، بل امتدّ دوره لتصوير ما يعتري المدن الإسلاميّة من كوارث بأسلوب أدبيّ يحمل في طيّاته نفحات الوعظ الدّينيّ، والزّهد في الدّنيا، والإشارة إلى أنّ الرّاحة الحقيقيّة ليست في هذه الدّنيا، فهذه الدّار ليست بدار قرار، وهذا ما وجدناه جليّاً في المقامة الّتي سمّاها بـ"

[1] – سورة الرّوم، الآية(2،3).

المقامة المنبجيّة "، وقد شكّل المكان أهميّة دلاليّة في عنوان المقامة؛ فالعناوين لا تنفصل عن سياقاتها الّتي شكّلت فيها؛ فهي نصوص جامعة ومختصرة لنصوص أوسع منها، و(ابن الورديّ) في المقامة المنبجيّة يصف لنا حال مدينة منبج بعد الزّلزال الّذي اعتراها قائلاً على لسان الرّاوي:" دخلت منبج في بعض الأسفار، فرأيت مصراً كأمصار، ولكن قد صغّر تصريف الدّهر اسمها، وأبهم على المتكلّمين حدّها ورسمها، فمساجدها بالدّثور ساجدة، ومشاهدها بحسرتها على من غاب عنها شاهدة، ورباطاتها محلولة القوى وللأنس فاقدة، ومدارسها دارسة لا واجدة، فازددت بحديثها القديم صبا، وغدا قلبي فيها، ودمعي كلفا بها وصبا، وحسدت غرابها في النّوح وسواد الثّياب، وتلوت يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، وعجبت لسورها المديد، وقصرها المشيد."[1]

يصف هنا (ابن الورديّ) –على لسان الرّاوي وبلغة مفعمة بالحزن– ما حلّ بهذه المدينة إثر الزّلزال؛ إذ إنّ بناها التّحتيّة قد تخلخلت، وجوامعها تهدّمت، وأصبحت مآذنها في مستوى صحن جامعها، معبّراً عن ذلك بقوله(فمساجدها بالدّثور ساجدة)؛ فالإنسان السّاجد يكون رأسه على الأرض كما هو حال جسده، وبذلك فإنّ مآذن المساجد قد تهدّمت حتّى أصبحت كالسّاجد. ومن آثار الزّلزال أيضاً غياب الأنس عنها؛ فقد أصبحت موحشة، لا حياة فيها، وهذا يذكّرنا بشعر الأطلال الّذي يقف على الدّيار الّتي خلت من أهلها، أمّا عن المدارس في منبج فجميعها أكله الهدم والدّمار باستثناء المدرسة النّوريّة الّتي كانت بمنأى عن هذا الخراب والدّمار.

وتأسيساً على ما سبق، نجد أنّ (ابن الورديّ) قد اعتصر القلوب بهذا الوصف، ففاضت العيون بغزارة، ولعلّه بذلك يحاول استدرار عطف المتلقّي على ما آل إليه وضع المدينة بعد أن كانت الحياة تسري فيها، والبهجة تشعّ منها؛ إذ إنّه تمنّى لو أنّه يستطيع لبس السّواد طوال العمر حزناً عليها، وهنا يستحضر نصّاً من سورة المائدة وهو قوله تعالى: (قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب)[2]، والهدف من وراء ذلك هو إظهار الحزن والأسى على هذه المدينة إلى جانب إظهار العجز عن القيام بأيّ عمل يمكن أن ينقذ هذه المدينة ممّا حلّ بها، وهذا هو ديدن كتّاب المقامات في تلك الحقبة الزّمنيّة؛ إذ وجدوا في الكتابة وسيلة لتطهير أنفسهم من الهموم والأحزان الّتي تساورهم إثر الحوادث الّتي تمرّ بها بلدانهم.

---

[1] – **ابن الورديّ** زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفّر ، 2006م– **ديوان ابن الورديّ**. ص28.

[2] – سورة المائدة، الآية 31.

ولا نغفل عن أهميّة التّناصّ القرآنيّ أيضاً في قوله(وتعجّبت لسورها المديد، وقصرها المشيد)؛ فهذا الكلام يحيلنا على قوله تعالى من سورة الحجّ: (فكأيّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطّلة وقصر مشيد)[1]

ولنا أن نستشفّ من التّناصّ ما بين النّصّين الحاضر والغائب أنّ (ابن الورديّ) أراد أن يصوّر هذه المدينة بأنها خربة، لكنّه لم يشرح لنا سبب خرابها، وإنّما ترك لنا اكتشاف ذلك بوساطة قوله(قصرها المشيد).

وعليه، واستناداً إلى النّصّ القرآنيّ نقول ربّما أراد أن يبيّن بطريقة غير مباشرة أنّ هذا الزّلزال كان عقاباً من الله عزّ وجلّ لهذه المدينة الظّالمة، وذلك على نحو ما حدث في مدينة طيبة عندما حلّ الطّاعون بأهلها عقاباً على فعل قد حدث.

ورغم كلّ ما سبق ذكره نجد أنّ (ابن الورديّ) حاول ألّا يبخس هذه المدينة حقّها من المدح فوصفها بأنّها مدينة عريقة؛ فهي أرض الملوك والشّعراء، ومن الوسائل الّتي ساعدته في تصوير ذلك هو استحضار التّراث من أسماء الملوك(حسّان) إلى أسماء الشّعراء (البحتريّ)، إلى أسماء الصّالحين(الشّيخ عقيل)؛ إذ يقول على لسان الرّاوي: " ونُبّهت على خبر ملكها حسّان بعد إذ دثّر،(...)، ورأيت قبر البحتريّ بها، وشهدت بهجة مشهد النّور، ودعوت عند المستجاب وفي سفح المصلّى خارج النّور، وزريت بقصور مادحيها، وتمثّلت بمادحي قصورها، وزرت قبور صالحيها، وتوسّلت بصالحي قبورها، وأمسيت نزيلاً لنزيلها الجليل، وليّ الله الشّيخ عقيل."[2]

وربّما أراد (ابن الورديّ) من استحضار هذه الأسماء والشّخصيّات إضافة إلى مدح منبج وعراقتها أن يصوّر زهده في هذه الدّنيا الفانية؛ فأين هؤلاء، وماذا بعد الموت؟! والدّليل على ذلك إنشاد الرّاوي في المقامة ذاتها البيتين المدوّنين على قبر الملك حسّان:

لقد غفلت صروف الدّهر عنّي وبتّ من الحوادث في أمان

---

[1] – سورة الحج، الآية 45.

[2] – **ابن الورديّ** زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفّر ، 2006م– **ديوان ابن الورديّ**. ص28.

وكدتُ أنالُ في الشّرف الثّريّا وها أنا في التّراب كما تراني"[1]

فهذان البيتان قد دوّنا على قبر الملك حسّان الّذي كاد أن يضاهي النجوم في علوّ مكانته، وسموّ شرفه ومنزلته، غير أنّه الآن قابع في قبره، قد ساواه الموت مع بني البشر ممّن سبقه في ذلك من الملوك والعامّة، وهنا نستشفّ ملامح الوعظ الدّينيّ، وهذا الوعظ تظنّه قد وجّه لنفسه الأمّارة بالسّوء أوّلاً، ثمّ للمتلقّي والقارئ لهذه المقامة على مرّ العصور والأزمان.

الخاتمة:

حاول هذا البحث الموسوم بـ" صورة المدينة في مقامات ابن الورديّ" بيان صورة المدينة، وأبعادها في مقامتي ابن الورديّ (المنبجيّة، والأنطاكيّة)، وقد توصّل إلى نتائج يمكن أن نوجزها بما يأتي:

- تعمّقت جذور المدينة في وجدان (ابن الورديّ) وارتبط بها، واختلفت مشاعره اتّجاهها؛ فتارة نجده يمدحها ويرثي حالها، وتارة أخرى يذمّها، ويهجوها، وينفّر منها، ومن العيش فيها.

- تعدّدت المصادر الّتي استرفد منها (ابن الورديّ) صوره لوصف المدن، ومن أبرز هذه المصادر: القرآن الكريم؛ إذ استخدم التّلويح والإيماء إلى بعض القصص القرآنيّة الموحية(الغراب، أهل الكهف) للتّعبير عن الفكرة الّتي يريدها في عبارة موجزة. والإنسان حين صوّر مساجد منبج ساجدة كسجود الإنسان، إضافة إلى التّراث الشّعريّ حين استحضر الشّاعر البحتريّ.

- خرجت المقامة عند (ابن الورديّ) عن طابعها العام؛ إذ أصبحت بمنزلة سجّل يؤرّخ فيه للحوادث السّياسيّة والاجتماعيّة، والكوارث الطّبيعيّة الّتي أصابت المجتمع في تلك الحقبة الزّمنيّة.

- أبرز النّصّ المقاميّ العلاقة الوطيدة بين الكاتب والمدينة، وضرورة ارتباطهما في العمل الأدبيّ؛ فالمكان بصورة عامّة يعطي العمل الأدبيّ ومؤلّفه الأصالة والخصوصيّة.

---

[1]- **المصدر السّابق**، ص28.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- **الأزهريّ** أبو منصور محمّد بن أحمد، 1994م- **تهذيب اللّغة**. تحقيق: عبد الحليم النّجّار، ومحمّد علي النّجّار، القاهرة.
- **بشلم** منى، 2021م- **دلالات المدينة في شعر منيرة سعدة خلخال**. مجلّة دراسات معاصرة، مخبر الدّراسات النّقديّة والأدبيّة المعاصرة، المركز الجامعيّ، الجزائر، المجلّد 5، العدد 1.
- **الحنبلي** ابن العماد- **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**. إحياء التّراث العربيّ، بيروت.
- **الخالدي** طريف، 1979م- **دراسات في تاريخ الفكر العربيّ الإسلاميّ**. الطّبعة الثّانية، دار الطّليعة، بيروت،.
- **رمضان** أحمد، 1977م- **المجتمع الإسلاميّ في بلاد الشّام في عصر الحروب الصّليبيّة**. د، ط، الجهاز المركزيّ للكتب الجامعيّة، القاهرة.
- **الزّركليّ** خير الدّين، 1993م – **الأعلام**. الطّبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- **السّبكيّ** تاج الدّين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، 1999م –**طبقات الشّافعيّة الكبرى**. الطّبعة الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- **الشّرتونيّ** سعيد، 1993م- **أقرب الموارد في فصحى العرب والشّوارد**. الطّبعة الأولى، مطبعة مرسلي، بيروت.

- **العسقلانيّ** شهاب الدّين أحمد بن حجر، 1966م – **الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة**. تحقيق: محمّد سيد جاد الحقّ، دار الكتب الحديث، القاهرة.

- **عقاق** قادة، 2001م– **دلالة المدينة في الخطاب الشّعريّ العربيّ المعاصر دراسة في إشكاليّة التّلقّي الجماليّ للمكان**. منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

- **الفارابيّ** أبو نصر– **كتاب الجمع بين الحكيمين**. تقديم وتعليق: ألبير نصري نادر، الطّبعة الثّالثة، دار المشرق، بيروت.

- **القط** عبد القادر، 1979م– **في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ**. د، ط، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت.

- **ابن القلانسيّ حمزة، 1983م– تاريخ دمشق**. تحقيق: سهيل زكّار، دار حيّان، دمشق.

- **الكتبيّ** محمّد بن شاكر، 1973م – **فوات الوفيّات والذّيل عليها**. تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت.

- **ابن كثير** إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ الدّمشقيّ، 1999م– **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: سامي بن محمّد السّلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، السّعوديّة، الطّبعة الثّانية.

- **المرزوقيّ** رياض،1977م– **ملاحظات في تطوّر المقامة العربيّة**. مجلّة الموقف الأدبيّ، العدد 71آذار.

- **النّحاس** أبو جعفر أحمد بن محمد، 1988م– **معاني القرآن**. تحقيق: محمد علي الصّابونيّ، الطّبعة الأولى، جامعة أمّ القرى، مكّة المكرّمة.

- **ابن الورديّ** زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفّر بن عمر الورديّ الشّافعيّ، 1427هـ – **ديوان ابن الورديّ**. الطّبعة الأولى، تحقيق: عبد الحميد هنداويّ، دار الآفاق العربيّة، القاهرة.

An image of the city in Ibn al-Wardi's maqamat

Dr. al-Ali M

Abstract

This study seeks to clarify the image of the cityin the ancient Arab heritage text in a time period that witnessed many wars, conflicts, and conquests as well.

Its writers had no choice but to turn their faces towards literary writing to depict the important events that be fell Mamluck society. Among these people was Ibn al-Wardi, who was famous for his five Maqamat.

Accordingly, the study came in two directions; Asimple and the reasins for its prosperity in the era of Ibn al-Wardi, and another practical one that shows how the image of the city crystallized in the two shrines of Antioch and al- Manbijiyya and what means Ibn al- Wardi used in order to achieve his goal.

Key words: City, Image, Maqama, Ibn al-wardi.